عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

الْتَفَّ الصَّحَابَةُ حَوْلَ النَّبِىِّ ﷺ فِى المَسْجِدِ النَّبَوِىِّ يَشْكُونَ لَهُ قِلَّةَ المَاءِ العَذْبِ فِى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ، وَأَنَّ أَعْذَبَ مَاءٍ بِئْرٍ هِى لِرَجُلٍ مِنْ غَطَفَانَ يُبَالِغُ فِى سِعْرِ مَاءِ بِئْرِهِ العَذْبِ،فَأَرْسَلَ النَّبِىُّ ﷺ فِى طَلَبِ الرَّجُلِ.

وَعِنْدَمَا حَضَرَ عَرَضَ ﷺ عَلَيهِ أَنْ يَهَبَهَا لِلْمُسْلِمِينَ صَدَقَةً، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ اعْتَذَرَ فِى أَدَبٍ، فَلَيسَ لَهُ مَوْرِدُ رِزْقٍ غَيرَ هَذِهِ البِئْرِ.

وَفِى يَومٍ وَقَفَ النَّبِىُّ ﷺ فِى مَسْجِدِهِ قَائِلاً: «مَنْ يَشْتَرِى بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَهَا لِلْمُسْلِمِينَ وَلَهُ بِهَا مَشْرَبٌ فِى الجَنَّةِ؟».

وَلَمْ يَكَدِ النَّبِىُّ ﷺ يَنْتَهِى مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى قَامَ أَحَدُ صَحَابَتِهِ مُسْرِعًا إِلَى صَاحِبِ البِئْرِ لِيَنَالَ بُشْرَى النَّبِىِّ ﷺ .

وَتَمَّتِ الصَّفْقَةُ الرَّابِحَةُ بَينَ الصَّحَابِىِّ وَصَاحِبِ البِئْرِ، وَدَفَعَ الصَّحَابِىُّ خَمْسَةً وَثَلاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

وَأَمَامَ النَّبِىِّ ﷺ وَبِفَرْحَةٍ شَدِيدَةٍ وَقَفَ الصَّحَابِىُّ يُبَشِّرُهُ بِشِرَاءِ بِئْرِ رُومَةَ، فَلْيَخْرُجِ المُسْلِمُونَ إِلَيهَا، وَلْيَأْخُذُوا مِنَ المَاءِ مَا يَشَاءُونَ، فَقَدْ جَعَلَهَا صَدَقَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

إنَّهُ «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ بْنِ أَبِى العَاصِ»، الصَّحَابِىُّ المَعْرُوفُ بِذِى النُّورَيْنِ، يَلْتَقِى نَسَبُهُ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِى جَدِّهِمَا «عَبْدِ مَنَافٍ».

وُلِدَ–رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – بَعْدَ ستَّةِ أَعْوَامٍ مِنْ عَامِ الفِيلِ، وَتَرَبَّى مُنْذُ صِغَرِهِ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، فَلَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ، وَلَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا فِى الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَقُولُ عَنْهَا قَبْلَ الإِسْلامِ: «إِنَّهَا تُذْهِبُ العَقْلَ»، وَلَمْ يُشَارِكْ شَبَابَ مَكَّةَ لَهْوَهُم وَمُجُونَهُم. وَتَعَلَّمَ القِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ، وَعِنْدَمَا شَبَّ عَمِلَ بِالتِّجَارَةِ مَعَ أَبِيهِ، ثُمَّ تَوَلَّى تِجَارَةَ أَبِيهِ بَعدَ وَفَاتِهِ، وَرَبِحَتْ تِجَارَتُهُ حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَغْنِياءِ مَكَّةَ، وَعُرِفَ بِصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ وَوَفَائِهِ، وَاشْتُهِرَ عَنْهُ حُسْنُ الخُلُقِ، وَلِينُ المُعَامَلَةِ؛ حَتَّى صَارَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى قُرَيشٍ، فَكَانَتِ المَرأَةُ مِنْ قُرَيشٍ تُغَنِّى لِطِفْلِهَا أُغْنِيَةً تُجْمِلُ حُبَّ النَّاسِ لِعُثْمَانَ وَثَنَاءَهُم عَلَيهِ:

أُحِبُّكَ وَالرَّحْمَنِ حُبَّ قُرَيشٍ لِعُثْمَانِ

تَصَادَقَ «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ» مَعَ «أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ» قَبْلَ ظُهُورِ الإِسْلامِ، وَلَمَّا أَشْرَقَ نُورُ الإِسْلامِ عَلَى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، وَنَزَلَ الوَحْىُ عَلَى «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّه» ﷺ، وَكَانَ «أَبُو بَكْرٍ» أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الرِّجَالِ، وَتَحَمَّسَ لِنَشْرِ الدِّينِ الجَدِيدِ؛ فَأَسْرَعَ يَعْرِضُ الإِسْلامَ عَلَى صَدِيقِهِ «عُثْمَانَ» فَاقْتَنَعَ وَآمَنَ، وَذَهَبَ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ وَشَهِدَ أَمَامَهُ الشَّهَادَتَيْنِ فَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ أَسْلَمُوا. وَمَضَى «عُثْمَانُ» قَوِيًّا فِى إِيمَانِهِ، كَرِيمًا سَخِيًّا فِى عَطَائِهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَزَيَّنَهُ اللَّهُ بِخُلُقِ الحَيَاءِ، وَتَعَرَّضَ – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ – لِلإِيذَاءِ مِنْ عَمِّهِ «الحَكَمِ بْنِ أَبِى العَاصِ» فَكَانَ كُلَّمَا حَاوَلَ صَرْفَهُ عَنِ الإِسْلامِ ازْدَادَ تَمَسُّكًا بِدَعْوَتِهِ وَبِدِينِهِ الجَدِيدِ.

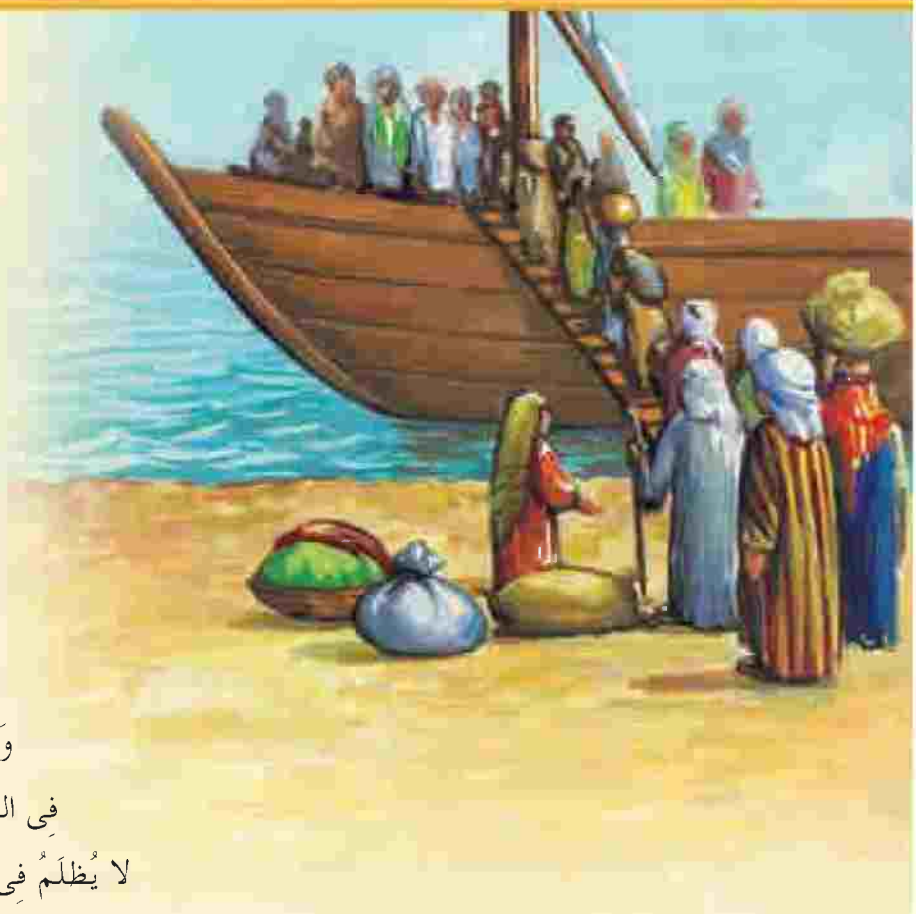

وَقَرَّبَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ إلَيه، وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ «رُقَيَّةَ» –رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُا– وَذَاتَ يَومٍ دَخَلَ النَّبِىُّ ﷺ عَلَيهَا فِى بَيْتِهَا يَتَفَقَّدُ شُئُونَهَا فَسأَلَهَا: «كَيفَ تَجِدِينَ أَبَا عَبْدِ اللَّه؟» فَأَجَابَتْ: كَخَيرِ الرِّجَالِ؛ فَقَالَ ﷺ: «أَكْرِمِيهِ فَإِنَّهُ مِنْ أَشْبَهِ أَصْحَابِى بِى خُلُقًا».

وَاشْتَدَّتْ قُرَيشٌ فِى عَدَائِهَا لِلإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ، وَتَعَرَّضَ المُؤْمِنُونَ لِلإِيذَاءِ وَالتَّعْذِيبِ، فَأَذِنَ النَّبِىُّ ﷺ لِصَحَابَتِهِ فِى الهِجْرَةِ إِلَى الحَبَشَةِ؛ لأَنَّ بِهَا مَلِكًا عَادِلاً لا يُظلَمُ فِى أَرْضِهِ أَحَدٌ، فَهَاجَرَ «عُثْمَانُ» وَزَوجُهُ إِلَيهَا؛ لِيَكُونَ أَوَّلَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الحَبَشَةِ فِرَارًا بِدِينِهِم.

وَظَلَّ «عُثْمَانُ» و«رُقَيَّةُ» فِى الحَبَشَةِ حَتَّى وَصَلَتْ أَخْبَارٌ بِإِسْلَامِ أَهْلِ مَكَّةَ؛ فَعَادَا إِلَيْهَا فَوَجَدَاهَا عَلَى شِرْكِهَا وَعِنَادِهَا، فَمَكَثَا بِهَا يَتَعَرَّضَانِ لِلاضْطِهَادِ، حَتَّى أَذِنَ النَّبِىُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ فِى الهِجْرَةِ

إلَى المَدينَةِ فَهَاجَرُوا، وَكَانَ «عُثْمَانُ» وَ«رُقَيَّةُ» أَوَّلَ المُهَاجِرِينَ، ثُمَّ تَبِعَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَبَدَأَ فِي إقَامَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَلَازَمَهُ «عُثْمَانُ» يُعِينُهُ وَيُسَانِدُهُ .

وَعِنْدَمَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِجِهَادِ المُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ فِي العَامِ الثَّانِي لِلهِجْرَةِ لَبَّى المُؤْمِنُونَ نِدَاءَ النَّبِيِّ، وَاسْتَعَدَّ «عُثْمَانُ» لِلخُرُوجِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُلَبِّيًا نِدَاءَ الجِهَادِ، وَلَكِنَّ مَرَضَ زَوْجِهِ «رُقَيَّةَ» حَالَ دُونَ اشْتِرَاكِهِ فِي الغَزْوَةِ؛ فَقَامَ عَلَى رِعَايَتِهَا، وَكَتَبَ اللَّهُ النَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ لِعُثْمَانَ بِسَهْمٍ فِيمَا غَنِمَهُ المُسْلِمُونَ مِنَ الكُفَّارِ، وَعَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ البَدْرِيِّينَ.

وَعِنْدَمَا عَادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَدْرٍ كَانَتِ السَّيِّدَةُ «رُقَيَّةُ» – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَدْ وَافَاهَا الأَجَلُ. فَزَوَّجَهُ النَّبِيُّ أُخْتَهَا «أُمَّ كُلْثُومٍ» –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وَشَهِدَ «عُثْمَانُ» غَزْوَةَ أُحُدٍ وَبَاقِيَ المَشَاهِدِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَمَا دَعَا النَّبِيُّ المُسْلِمِينَ لِلإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وإِعْدَادِ جَيْشِ العُسْرَةِ؛ جَاءَ «عُثْمَانُ» بِثَلَاثِمِائَةِ بَعِيرٍ مُحَمَّلَةٍ، وَبِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَالَ ﷺ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا». قَالَهَا مَرَّتَيْنِ، وَلَمَّا كَثُرَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ فِي المَدِينَةِ وَضَاقَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ بِالمُصَلِّينَ قَالَ ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدَهَا فِي المَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ؟»؛ فَاشْتَرَاهَا «عُثْمَانُ» بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مِنْ مَالِهِ وَأَضَافَهَا إِلَى المَسْجِدِ.

وَبَعْدَ حِجَّةِ الوَدَاعِ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَجْهِيزِ جَيْشٍ؛ لِإِنْفَاذِهِ إِلَى القَبَائِلِ المُجَاوِرَةِ لأَرْضِ الرُّومِ،

فَجَاءَ «عُثْمَانُ» بِمائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَعِيراً بِأَحْمَالِهَا، ثُمَّ جَاءَ بِستِّينَ فَرَساً، وَلَكِنَّ الرَّسُولﷺ مَرِضَ، وَاشْتَدَّ عَلَيهِ مَرَضُهُ فَانْتَظَرَ الجَيْشُ، وَفَاضَتْ رُوحُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى خَالِقِهَا، وَاجْتَمَعَ المُهَاجِرونَ وَ الأَنْصَارُ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَبَايَعُوا «أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ» بِالخِلافَةِ فَكَانَ «عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ» مَعَ «عُمَرَ ابْنِ الخَطَّابِ» مِنْ أَقْرَبِ مُسْتَشَارِي «أَبِي بَكْرٍ»، وَكَانَ «عُثْمَانُ» يَكْتُبُ رَسَائِلَهُ.

وَأَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ شَدِيدٌ، وَلَمَّا اشْتَدَّ الأَمْرُ بِالنَّاسِ جَاءُوا «أَبَا بَكْرٍ» فَشَكَوا لَهُ، فَقَالَ:

اصْبِرُوا فَإِنِّي أَرْجُو اللَّهَ أَلا تُمْسُوا حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ عَنْكُم، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ جَاءَتِ البُشْرَى؛ إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مِنَ الشَّامِ، فَلَمَّا جَاءَتْ خَرَجَ النَّاسُ يَتَلَقَّوْنَهَا، فَإِذَا هِيَ أَلْفُ بَعِيرٍ مُحَمَّلَةٍ زَيتًا وَزَبِيبًا وَشَعِيرًا، فَتَوَقَّفَتْ بِبَابِ «عُثْمَانَ» فَجَاءَهُ التُّجَّارُ وَقَالُوا: تَعْلَمُ حَاجَةَ النَّاسِ، بِعْنَا مِنْ هَذَا الَّذِي وَصَلَ إِلَيكَ.

فَقَالَ «عُثْمَانُ»: «إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ أَنِّي جَعَلْتُ مَا حَمَلَتْ هَذِهِ العِيرُ صَدَقَةً لِلَّهِ – تَعَالَى– عَلَى المَسَاكِينِ وَفُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ».

وَلَمَّا احْتُضِرَ «أَبُو بَكْرٍ» عَزَمَ عَلَى اخْتِيَارِ «عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ» خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ فَدَعَا كِبَارَ الصَّحَابَةِ يُشَاوِرُهُم، وَمِنْهُم «عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ»، فَقَالَ «عُثْمَانُ»:

«عِلْمِي فِيهِ أَنَّ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنْ عَلانِيَتِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِينَا مِثْلُهُ»، فَأَمَرَهُ «أَبُو بَكْرٍ» أَنْ يَكْتُبَ وَثِيقَةَ الاسْتِخْلافِ.

وَتُوُفِّيَ «الصِّدِّيقُ» عَامَ (١٣هـ)، وَبَايَعَ المُسْلِمُونَ «عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ»، وَكَانَ «عُثْمَانُ» مِنْ أَقْرَبِ الصَّحَابَةِ إِلَيهِ مَعَ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ» وَ«عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ» وَكَانَ مِنْ قُرْبِهِ لِعُمَرَ يُسَمَّى الرَّدِيفَ، فَإِذَا أَرَادَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَسْأَلُوا «عُمَرَ» عَنْ شَيْءٍ أَرْسَلُوا «عُثْمَانَ»، وَكَانَ مِمَّنْ تُرْفَعُ إِلَيهِ حَاجَاتُ النَّاسِ.

وَلَمَّا طُعِنَ «عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ» أَوْصَى بِأَنْ يَكُونَ الأَمْرُ شُورَى فِي السِّتَّةِ الَّذِينَ مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ

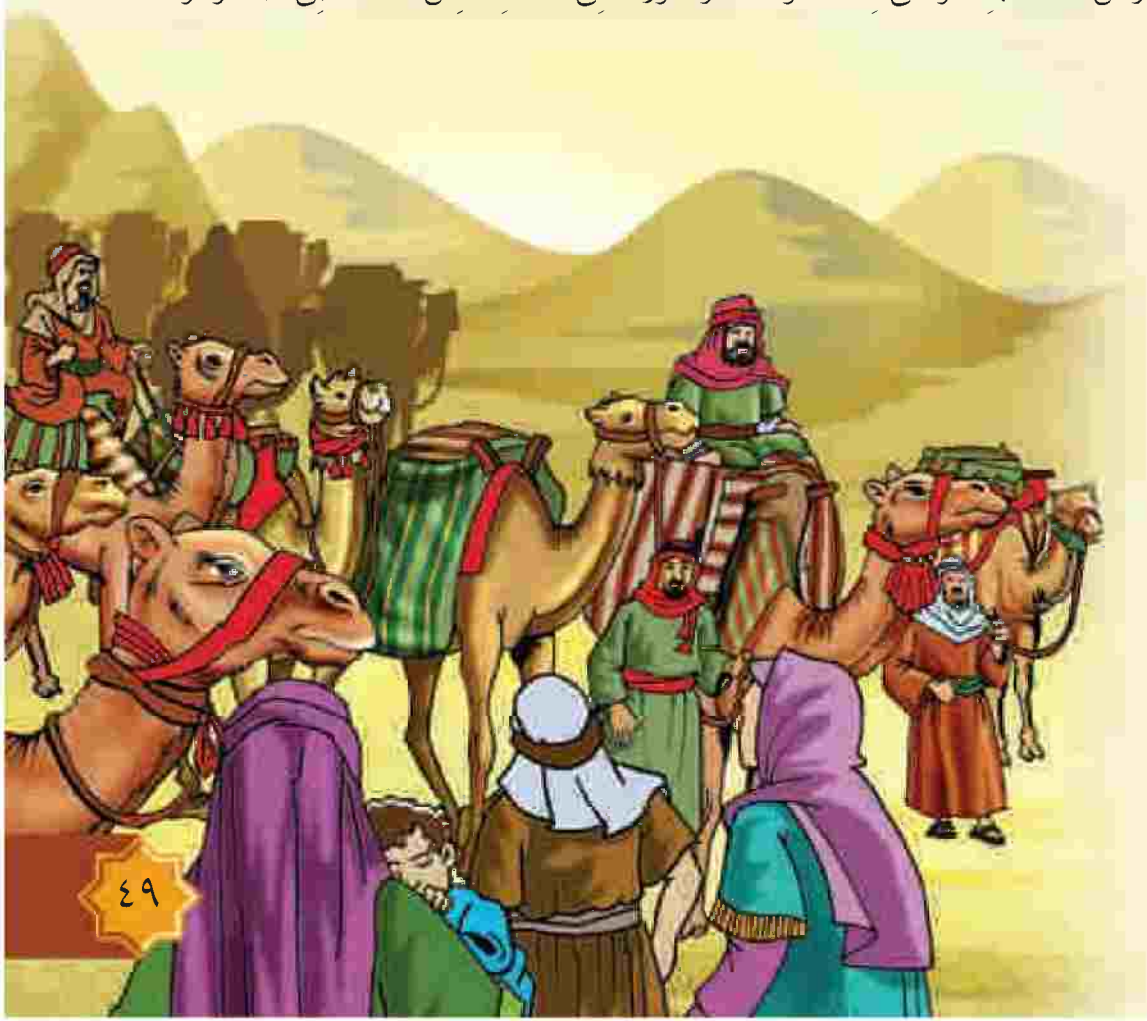

رَاضٍ عَنْهُم وَهُمْ: «عُثْمَانُ» وَ«عَلِيٌّ» و«عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوفٍ»، وَ«طَلْحَةُ بنُ عُبَيدِ اللَّه»، وَ«الزُّبَيرُ بنُ العَوَّامِ»، وَ«سَعْدُ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ». وَفَوَّضَ أَهْلُ الشُّورَى «عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوفٍ» -بَعْدَ أَنْ خَلَعَ نَفْسَهُ مِنْ بَينِ المُرَشَّحِينَ لِلْخِلافَةِ- فِي اخْتِيارِ أَحَدِهِم بَعْدَ مُشَاوَرَةِ المُسْلِمِينَ.

أَخَذَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» يُوَازِنُ بَينَ هَؤُلاءِ الخَمْسَةِ، وَانْتَهَى إِلَى انْتِخَابِ فَازَ فِيهِ «عُثْمَانُ» بِرَأْيِ «طَلْحَةَ بْنِ عُبَيدِ اللَّه» وَ«سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ»، ثُمَّ أَخَذَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» يَسْتَشِيرُ الأُمَّةَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَعَامَّةِ النَّاسِ حَتَّى أَخَذَ رَأْيَ النِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ وَالرُّكْبَانِ مِنَ الأَعْرَابِ الوَارِدِينَ إِلَى المَدِينَةِ؛ فَرَأَى النَّاسَ يَخْتَارُونَ «عُثْمَانَ» لِمَا لَهُ مِنْ مَكَانَةٍ فِي قُلُوبِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَمَحَبَّةِ النَّاسِ لَهُ وَمَيلِهِم إِلَيهِ، وَرَغْبَتِهِم فِي وِلايَتِهِ، وَرِضَائِهِم بِحُكْمِهِ وَخِلافَتِهِ عَلَيهِم.

فَلَمَّا رَأَى «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» ذَلِكَ بَايَعَ «عُثْمَانَ»، ثُمَّ تَبِعَهُ «عَلِيٌّ» وَبَاقِي الخَمْسَةِ أَصْحَابُ الشُّورَى، ثُمَّ بَايَعَهُ النَّاسُ بَيْعَةً عَامَّةً فِي المَسْجِدِ.

وَعِنْدَمَا بُويِعَ «عُثْمَانُ» صَعِدَ المِنْبَرَ لِيُعْلِنَ عَنْ نَهْجِهِ وَسِيَاسَتِهِ، وَأَنَّهُ سَيَتْبَعُ القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ وَنَهْجَ مَنْ سَبَقُوهُ – أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ – فَقَالَ:

«.. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُلِّفْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ، أَلا وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، أَلا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ثَلاثًا: اتِّبَاعَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُم عَلَيهِ وَسَنَنْتُمْ، وَسُنَنَ أَهْلِ الخَيرِ فِيمَا تَسَنَّوا عَنْ مَلأٍ، والكَفَّ عَنكُمْ إلا فِيمَا اسْتَوجَبْتُمُ العُقُوبَةَ..».

وَعَمَلا بِوَصِيَّةِ «عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ» أَقَرَّ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ «عُثْمَانُ» عُمَّالَ «عُمَرَ» وَوُلاتِه، فَلَمْ يَعْزِلْ مِنْهُمْ أَحَدًا عَامًا كَامِلا، وَبَعَثَ إِلَيهِمْ بِكِتَابٍ يُبَيِّنُ فِيهِ نَهْجَهُ الَّذِي سَيَسِيرُ عَلَيهِ وَيُبَيِّنُ لَهُمْ وَاجِبَهُم نَحْوَ الرَّعِيَّةِ، وَيُعَرِّفُهُم أَنَّ مُهِمَّتَهُم رِعَايَةُ مَصَالِحِ النَّاسِ وَلَيْسَتْ جَمْعَ المَالِ، فَكَتَبَ يَقُولُ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الأَئِمَّةَ أَنْ يَكُونُوا رُعَاةً، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيهِمْ أَنْ يَكُونُوا جُبَاةً.. أَلا وإِنَّ أَعْدَلَ السِّيرَةِ أَنْ تَنْظُرُوا فِي أُمُورِ المُسْلِمِينَ وَفِيمَا عَلَيهِم، فَتُعْطُوهُمُ الَّذِي لَهُمْ وَتَأْخُذُوا بِمَا عَلَيهِم، ثُمَّ تَثَنُّوا بِالذِّمَّةِ (الَّذِينَ يَدِينُونَ بِغَيرِ الإِسْلامِ وَيَدْفَعُونَ الجِزْيَةَ) فَتُعْطُوهُمُ الَّذِي لَهُم وَتَأْخُذُوهُم بِالَّذِي عَلَيهِمْ، ثُمَّ العَدُوِّ فاسْتَفْتِحُوا عَلَيهِمْ بِالوَفَاءِ».

وَكَتَبَ إِلَى قَادَةِ الجُيُوشِ وَأُمَرَاءِ الجُنُودِ لِيُؤَكِّدَ لَهُمُ العِبْءَ المُلْقَى عَلَى عَاتِقِهِم بِمَا عَلَيهِم مِنْ حِمَايَةِ دِيارِ الإِسْلامِ وَالذَّوْدِ عَنْ أَعْرَاضِ المُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِم، وَأَنَّهُ سَيَسِيرُ عَلَى سِيَاسَةِ «عُمَرَ»، ثُمَّ يُحَذِّرُهُمُ العُدُولَ عَنِ الحَقِّ فَيُعَاقِبُهُمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: «.. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكُمْ حُمَاةُ المُسْلِمِينَ وَقَادَتُهُم

وَقَدْ وَضَعَ لَكُم عُمَرُ مَا لَمْ يَغِبْ عَنَّا.. وَلايَبْلُغُنِى عَنْ أَحَدٍ مِنْكُم تَغْيِيرٌ وَلاتَبْدِيلٌ فَيُغَيِّرَ اللَّهُ بِكُم وَيَسْتَبْدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ..»، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عُمَّالِ الخَرَاجِ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ بالحَقِّ، فَلاَ يُقْبَلُ إلا الحَقُّ، خُذُوا الحَقَّ، وَأَعْطُوا الحَقَّ بِهِ، والأَمَانَةَ الأَمَانَةَ، فَقُومُوا عَلَيهَا، وَلاتَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يَسْلُبُهَا.. وَالوَفَاءَ الوَفَاءَ، وَلاتَظْلِمُوا اليَتِيمَ وَلا المُعَاهِدَ فَإِنَّ اللَّهَ خَصْمٌ لِمَنْ ظَلَمَهُم».

وَاسْتَمَرَّتْ حَرَكَةُ الفُتُوحَاتِ الإِسْلامِيَّةِ فِي عَهْدِ «عُثْمَانَ»، فَفُتِحَتْ «هَمَذَانُ»، وَاخْتَارَ «عُثْمانُ» قَادَةً أَكْفَاءَ شُجْعَانًا، وَتَوَالَتِ الانْتِصَارَاتُ، وَانْتَشَرَ الإِسْلامُ عَلَى أَيدِيهِم، فَفَتَحَ «أَبُو مُوسى الأَشْعَرِيُّ» مَدِينَةَ الرِّيِّ، وَفَتَحَ «الوَلِيدُ بنُ عُقْبَةَ» بِلادَ «أَذْرَبِيجَانَ» وَ«أَرْمِينِيَّةَ»، وَفَتَحَ «عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي السَّرْحِ» مَدِينَةَ «إِفْرِيقِيَّةَ»، وَفَتَحَ «سَعِيدُ بنُ العَاصِ» مَدِينَةَ «طَبَرِسْتَانَ» وَغَزَا شَمَالَ فَارِسَ، وَفَتَحَ «عَبْدُ اللَّهِ ابنُ عَامِرٍ» مَدِينَةَ «خُرَاسَانَ» وَأَطْرَافَ بِلادِ فَارِسَ وَمَدِينَتَي «سِجِسْتَانَ» «وَكَرْمَانَ»، وَفُتِحَتْ مُدُنُ «سَابُورَ» و«أَرْجَانَ» و«أَصْبَهَانَ» و«الحَبَشَةِ»، وَفُتِحَتْ جَزِيرَةُ «قُبْرُصَ» وَ«مَالطَةَ».

كَمَا أَمَّنَ «عُثْمَانُ» حُدُودَ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ مِنْ غَارَاتِ الرُّومِ، وَأَلْحَقَتْ جُيُوشُهُ بِهِمُ الهَزَائِمَ المُتَعَدِّدَةَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يَتَوَقَّفُونَ عَنِ الإِغَارَةِ عَلَى المُدُنِ الإِسْلامِيَّةِ المُجَاوِرَةِ لَهُمْ.

وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ أُنشِئَتِ البَحْرِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ، فَقَدْ أَذِنَ «عُثْمَانُ» لِوَالِيهِ عَلَى الشَّامِ «مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ» بِالغَزْوِ البَحْرِيِّ، كَمَا سَمَحَ لِوَالِيهِ عَلَى مِصْرَ أَيضًا «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ» بِالغَزْوِ البَحْرِيِّ، وَكَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ «عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ» قَدْ رَفَضَ ذَلِكَ خَوفًا عَلَى المُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُم- وَقْتَهَا- خِبْرَةٌ بِالبَحْرِ، وَاشْتَرَطَ «عُثْمَانُ» عَلَى قَادَةِ

جُيُوشِهِ ألا يُرْغَمَ أَحَدٌ عَلَى الغَزْوِ فِى البَحْرِ فَمَنِ اخْتَارَ الغَزْوَ طَائِعًا حُمِلَ وَأُعِينَ.

وَقَدْ حَقَّقَ الأُسْطُولُ البَحْرِىُّ الإِسْلامِىُّ انْتِصَارَاتٍ كَبِيرَةً كَمَعْرَكَةِ «ذَاتِ الصَّوَارِى»، وَهَزَمَ الأُسْطُولَ البِيزَنْطِىَّ أَكْبَرَ الأَسَاطِيلِ البَحْرِيَّةِ فِى العَالَمِ آنَذَاكَ، كَمَا فَتَحَ بَعْضَ جُزُرِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ فَدَخَلَهَا الإِسْلامُ.

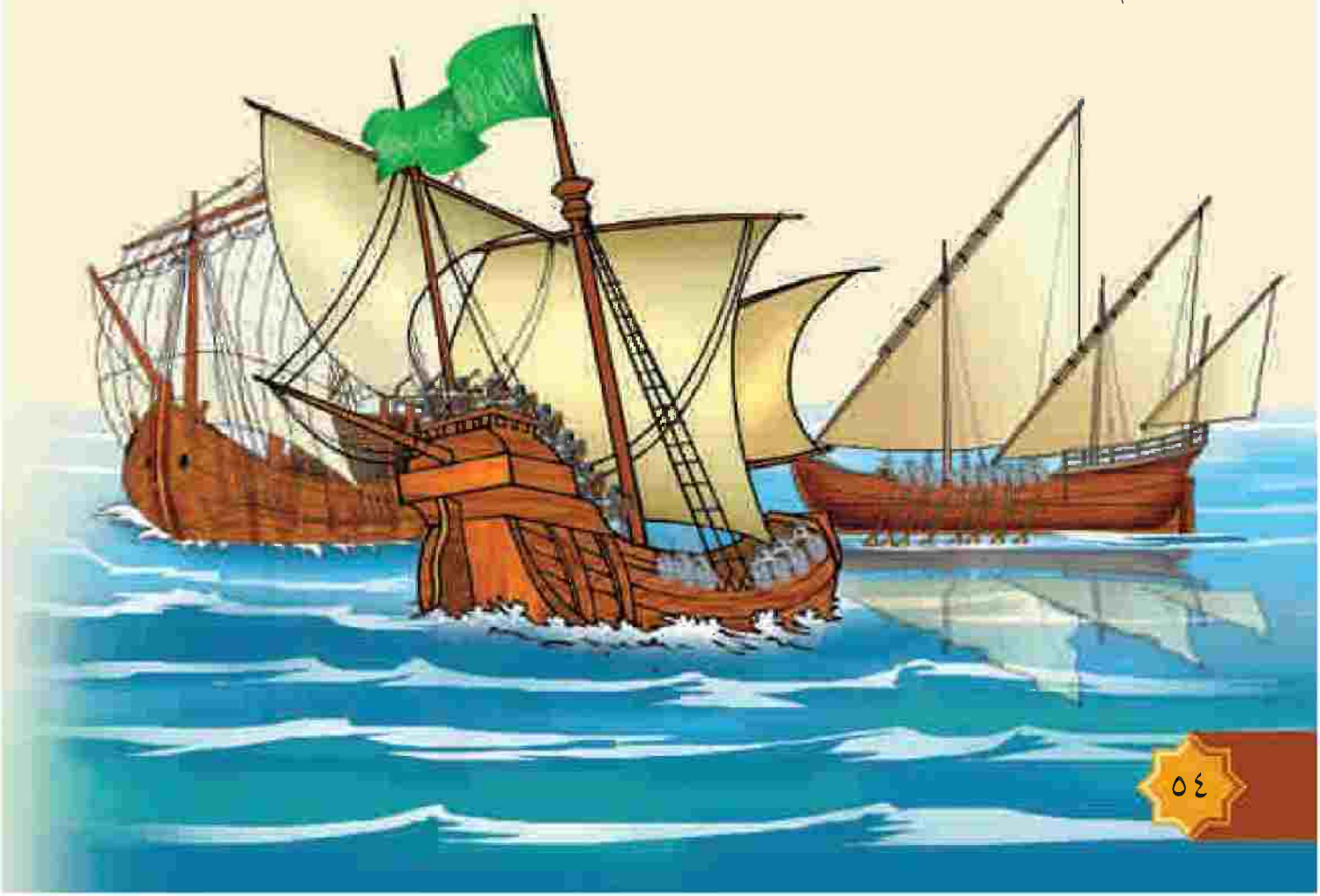

سَارَ «عُثْمَانُ» –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَلَى نَهْجِ صَاحِبَيه – أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ– فَكَانَ رَءُوفًا بِالمُسْلِمِينَ يَتَفَقَّدُهُم وَيَسْأَلُ عَنْ أَحْوَالِهِم، وَيَتَعَرَّفُ مُشْكِلاتِهِم، وَيَطْمَئِنُّ عَلَى مَنْ غَابَ مِنْهُم، وَيَسْأَلُ عَنْ مَرْضَاهُم، وَيَتَوَاضَعُ مَعَ الفُقَرَاءِ فَيَسِيرُ فِى الأَسْوَاقِ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ أَخْبَارِهِم وَأَسْعَارِ الطَّعَامِ، وَيَنَامُ فِى المَسْجِدِ وَيَقُومُ وَأَثَرُ الحَصَى فِى جَنْبِهِ.

وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تَدْخُلُ بَيْتَهُ وَتَجْلِسُ مَعَ زَوْجِهِ فَفَقَدَهَا يَومًا فَقَالَ لأَهْلِهِ:

– مَا لِى لا أَرى فُلانَةً؟

فَقَالَتْ زَوْجُهُ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَلَدَتْ غُلامًا.

فَأَرْسَلَ إِلَيهَا خَمْسِينَ دِرْهَمًا وَثِيَابًا جَدِيدَةً، وَكِسْوَةً لِلغُلامِ ، وقَالَ : إذا مَرَّتْ بِهِ سَنَةٌ رَفَعْنَاهُ إِلَى مِائَةٍ.

وَفِى خِلافَتِهِ كَثُرَ النَّاسُ بِالمَدِينَةِ فَاتَّسَعَتْ؛ فَأَمَرَ «عُثْمَانُ» بِالأَذَانِ الثَّانِى عِنْدَ صَلاةِ الجُمْعَةِ، لِيُعْلِمَ النَّاسَ أَنَّ الجُمْعَةَ قَدْ حَضَرَتْ، وَوَافَقَهُ الصَّحَابَةُ وَسَارَتْ سُنَّةً يُعْمَلُ بِهَا.

وَكَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ بَعِيرًا وَشِيَاهًا، فَلَمَّا وَلِيَ الخِلافَةَ أَخَذَ يُنْفِقُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مَالِهِ الخَاصِّ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ غَيرُ بَعِيرَينِ حَجَّ بِهِمَا إِلَى بَيتِ اللَّهِ الحَرَامِ.

وَحَرَصَ «عُثْمَانُ» عَلَى إِقَامَةِ شَرْعِ اللَّهِ وَحُدُودِه، لا تَأْخُذُهُ فِى اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ حَتَّى فِى أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيهِ، فَعِنْدَمَا ثَبَتَ أَنَّ «الوَلِيدَ بنَ عُقْبَةَ» – وَهُوَ أَخُوهُ مِنْ أُمِّهِ – قَدْ شَرِبَ الخَمْرَ عَزَلَهُ وَأَقَامَ

عَلَيه الحَدَّ، كَمَا كَتَبَ إلَى النَّاسِ أَنْ يَأْتُوا إلَيه فِى أَىِّ وَقْتٍ لمنْ كَانَتْ لَهُمْ مَطَالِبُ أَوْ مَظَالِمُ.

وَيُعَدُّ جَمْعُ «عُثْمَانَ» الأُمَّةَ الإسْلامِيَّةَ عَلَى قِرَاءَةٍ وَاحِدَةٍ مَكْتُوبَةٍ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِه وَأَعْظَمِهَا، فَقَدْ قَدِمَ إلَيه الصَّحَابِىُّ «حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ» مِنْ سَفَرٍ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَينَهُم عَلَى قِرَاءَةِ كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ – وَكَانَ القُرْآنُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِىِّ عَلَى سَبْعِ قِرَاءَاتٍ–، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُدْرِكَ المُسْلِمِينَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِى القُرْآنِ، فَفَزِعَ «عُثْمانُ» وَجَمَعَ أَصْحَابَ النَّبِىِّ وَشَاوَرَهُم فِى الأَمْرِ، فَاتَّفَقُوا عَلَى جَمْعِ المُسْلِمِينَ عَلَى قِرَاءَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِى الَّتِى بِلُغَةِ قُرَيشٍ، وَاتَّفَقُوا أَنَّ القِرَاءَاتِ الَّتِى قَرَأَ بِهَا الرَّسُولُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ مَحْفُوظَةٌ فِى الصُّدُورِ يُعَلِّمُهَا الآبَاءُ لأَبْنَائِهِم وَيَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ شَفَاهَةً.

ثُمَّ أَرْسَلَ إلَى السَّيِّدة «حَفْصَةَ» زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَها فِى نُسْخَةِ المُصْحَفِ الَّتِى كُتِبَتْ أَيَّامَ الصِّدِّيقِ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَشْكِيلِ لَجْنَةٍ قَامَتْ بِنَسْخِ عِدَّةِ نُسَخٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَأَرْسَلَ نُسْخَةً إلَى كُلِّ قُطْرٍ.

ثُمَّ قَامَ «عُثْمَانُ» بِتَوسِيعِ المَسْجِدِ النَّبَوِىِّ الشَّرِيفِ، وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ بَعْدَ أَنْ رَأَى ازْدِحَامَ المَسْجِدَيْنِ بِالمُصَلِّينَ.

وَقَدْ أَصْبَحَتِ الدَّوْلَةُ الإسْلامِيَّةُ عَلَى عَهْدِ «عُثْمَانَ» أَعْظَمَ دَوْلَةٍ فِى العَالَمِ، وَبَلَغَ الإسْلامُ فِى خِلافَتِه مَشْرِقَ الأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا، وَامْتَدَّتْ دَوْلَةُ الإسْلامِ مِنَ السِّنْدِ فِى الشَّرْقِ إلَى إفْرِيقِيَّةَ فِى الغَرْبِ، وَمِنَ القَوْقَازِ فِى الشَّمَالِ إلَى الحَبَشَةِ فِى الجَنُوبِ، غَيرَ جُزُرِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ وَالبَحْرِ الأَحْمَرِ الَّذِى أَصْبَحَ بُحَيرَةً إسْلامِيَّةً.

وَعَاشَ المُسْلِمُونَ يَنْعَمُونَ بالأَمْنِ وَالاسْتِقْرَارِ حَتَّى أَصْبَحَ فِي زَمَانِهِ لِكُلِّ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ رَاتِبٌ مِنْ بَيتِ مَالِ المُسْلِمِينَ. إِلَى أَنْ ظَهَرَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالحَاقِدِينَ عَلَى دَوْلَةِ الإِسْلامِ فَتَآمَرَتْ عَلَى هَدْمِهِ وَتَشْوِيهِ مَبَادِئِهِ وَإِثَارَةِ الخِلافَاتِ، وَبَدَأَتِ الفِتْنَةُ بِقِيَادَةِ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ تَظَاهَرَ بِالإِسْلامِ يُسَمَّى «عَبْدَ اللَّهِ بنَ سَبَأٍ» الَّذِي بَدَأَ هُوَ وَأَتْبَاعُهُ الكَيدَ لِلإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، فَأَخَذُوا يَعِيبُونَ عَلَى خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ «عُثْمَانَ» أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِأَقْرِبَائِهِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، مَعَ أَنَّ أَقْرِبَاءَهُ الَّذِينَ اسْتَعَانَ بِهِم كَانَ قَدِ اسْتَعْمَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ و«أَبُو بَكْرٍ» وَ«عُمَرُ»، وَقَدْ أَظْهَرُوا كَفَاءَةً فِي الحُكْمِ؛ مِثْلَ: «مُعَاوِيَةَ» وَالِي الشَّامِ، وَهُوَ مِنْ كُتَّابِ الوَحْيِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَ«عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ» وَالِي مِصْرَ، و«عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ» وَالِي البَصْرَةِ، ثُمَّ قَامَ هَؤُلاءِ المُتَآمِرُونَ بِنَشْرِ دَعْوَى كَاذِبَةٍ وَهِيَ أَنَّ «عُثْمَانَ» اغْتَصَبَ الخِلافَةَ مِنَ الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»، مَعَ أَنَّ «عَلِيًّا» كَانَ مِنْ أَوَّلِ مَنْ بَايَعَ «عُثْمَانَ» بِالخِلافَةِ.

أَخَذَ «عَبْدُ اللَّه بْنُ سَبَأٍ» يَنْتَقِلُ فِى الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّة لِنَشْرِ سُمُومِه وَأَكَاذِيبِه فَلَمْ يَجِدْ أُذُنًا مُصْغِيَةً؛ فَانْتَقَلَ إِلَى الشَّامِ فَطُرِدَ مِنْهَا، فَانْتَقَلَ إِلَى الكُوفَة، وَهِىَ مَعْرُوفَةٌ بِعِصْيَانِ أَهْلِهَا وَكَثْرَةِ شَكْوَاهُم مِنْ وُلاتِهِم ، فَوَجَدَ لَهُ فِيهَا أَتْبَاعًا، وَانْطَلَقَتْ مِنْهَا شَرَارَةُ الفِتْنَة وَتَحَقَّقَتْ نُبُوءَةُ النَّبِىِّ ﷺ حِينَمَا أَشَارَ إِلَى شَرْقِ المَدِينَة وَقَالَ: «أَلا إِنَّ الفِتْنَةَ هَا هُنَا» .

ثُمَّ اسْتَقَرَّ «ابنُ سَبَأٍ» فِى مِصْرَ وَأَخَذَ يُنَظِّمُ مُؤَامَرَتَهُ ضِدَّ «عُثْمَانَ»، وَيُذِيعُ مَا زَعَمَهُ مِنَ المَظَالِمِ فِى البُلْدَانِ المُخْتَلِفَة، وَيَحُثُّ النَّاسَ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ لِخَلْعِ «عُثْمَانَ» – رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ–، وَقَدْ خَدَعَ بَعْضَ النَّاسِ وَغَشَّهُم، وَادَّعَى أَنَّهُ وَصَلَتْهُ رَسَائِلُ مِنْ أَهلِ المَدِينَةِ وَكِبَارِ الصَّحَابَةِ تَأْمُرُهُ بِالثَّورَةِ عَلَى «عُثْمَانَ» رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَانْطَلَقَ المُتَآمِرُونَ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَة، فَتَبَرَّأَ الصَّحَابَةُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيهِم مِنْ رَسَائِلَ، وَوَجَدُوا «عُثْمَانَ» مُحَافِظًا عَلَى الحُقُوق، وَيَنَالُ حُبَّ كِبَارِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ المَدِينَةِ وَرِضَاهُم، وَنَاقَشَهُم «عُثْمَانُ» وَرَدَّ عَلَى أَكَاذِيبِهِم وَبَيَّنَ لَهُم صَوَابَ مَا يَفْعَلُ ، فَرَجَعُوا وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا تَنْفِيذَ مُخَطَّطِهِم.

وَفِى شَوَّال عَامَ (٣٥هـ) اغْتَنَمَ هَؤُلاءِ المُتَآمِرُونَ غَيبَةَ أَكْثَرِ أَهْلِ المَدِينَةِ فِى مَوْسِمِ الحَجِّ ، وَخَرَجُوا فِى سِتِّمِائَةِ رَجُلٍ، وَخَرَجَ أَهْلُ الكُوفَةِ فِى سِتِّمِائَةٍ، وَمَجْمُوعَةٌ مِنْ أَهْلِ البَصْرَة، وَخَرَجَتْ مَعَهُمْ فِئَةٌ مِنَ

النَّاسِ لاتُفَرِّقُ بَينَ الحقِّ وَالضَّلالِ، وفِئَةٌ أُخْرَى أَخْرَجَهَا المَالُ وَالطَّمَعُ حَتَّى بَلَغُوا ثَلاثَةَ آلافِ رَجُلٍ يَقُودُهُمْ «مَالِكٌ الأَشْتَرُ» وَ«الغَافِقِيُّ»، وَ«سُورَانُ بنُ حِمْدَانَ»، وَلَمْ يُعْلِمُوا النَّاسَ بِخُرُوجِهِم إلى الثَّورَةِ وَالحَرْبِ، وإِنَّمَا أَخْبَرُوهُم أَنَّهُم خَرَجُوا كَحُجَّاجٍ، وَكَانَ مَعَهُم «عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ» رَأسُ الفِتْنَةِ.

وَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنَ المَدِينَةِ بَدَءُوا فِي تَنْفِيذِ مُؤَامَرَتِهِم فَبَعَثُوا اثْنَينِ مِنْهُمْ لِيَطَّلِعَا عَلَى أَخْبَارِ المَدِينَةِ وَأَحْوَالِ أَهْلِهَا، وَحَاوَلا مُقَابَلَةَ الصَّحَابَةِ فَأَبَى الصَّحَابَةُ دُخُولَهُمُ المَدِينَةَ، وَحَذَّرَهُمْ «عَلِيٌّ» وَ«طَلْحَةُ» و«الزُّبَيرُ» مِمَّا يُرِيدُونَ بِالمُسْلِمِينَ مِنْ إِثَارَةِ الفِتْنَةِ، فَتَظَاهَرَ المُتَآمِرُونَ بِالرُّجُوعِ عَنِ المَدِينَةِ، ثُمَّ عَادُوا إِلَيهَا زَاعِمِينَ بِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ خَلْعَ «عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي السَّرْحِ» عنْ وِلايَةِ «مِصْرَ» وَأَلْصَقُوا بِهِ التُّهَمَ زُوراً؛ فَخَشِيَ «عُثْمَانُ» أَنْ تَدُبَّ الفُرْقَةُ فَجَمَعَ الصَّحَابَةَ وَعَرَضَ عَلَيهِمُ الأَمْرَ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِعَزْلِهِ واخْتِيَارِ رَجُلٍ يَرْضَونَهُ فَاخْتَارُوا «مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ»، فَوَافَقَ «عُثْمَانُ» وَوَلَّى «مُحَمَّداً» وَأَرْسَلَهُ مَعَهُم فِي جَمَاعَةٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلَكِنَّهُم عَادُوا إِلَى المَدِينَةِ مَرَّةً أُخْرَى زَاعِمِينَ أَنَّهُم عَثَرُوا عَلَى رِسَالَةٍ مِنْ «عُثْمَانَ» إِلَى «عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي السَّرْحِ» يَأْمُرُهُ بِقَتْلِهِم؛ فَنَفَى «عُثْمَانُ» عِلْمَهُ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ وَأَقْسَمَ لَهُمْ، وَعِنْدَمَا طَالَبَهُم بِالرِّسَالَةِ نَفْسِهَا رَفَضُوا، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَعْتَزِلَ الخِلافَةَ؛ فَأَبَى «عُثْمَانُ» – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَقَدْ عَهِدَ النَّبِيُّ إِلَيهِ أَنْ لا يَخْلَعَ نَفْسَهُ مِنَ الخِلافَةِ؛ إِذْ قَالَ لَهُ ﷺ يَوماً: «يَا عُثْمَانُ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُقَمِّصَكَ قَمِيصاً مِنْ بَعْدِي (الخِلافَةَ)؛ فَإِنْ أَرَادَكَ المُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلا تَخْلَعْهُ» (قَالَ لَهُ ذَلِكَ ثَلاثاً).

وَاسْتَمَرَّ حِصَارُ دَارِ «عُثْمَانَ» أَكْثَرَ مِن أَرْبَعِينَ يَوماً، وَكَانَ «عُثْمَانُ» خِلالَهَا شُجَاعاً هَادِئاً صَابِراً، وَعِنْدَمَا جَاءَهُ الصَّحَابَةُ لِيُحَارِبُوا لِرَفْعِ الحِصَارِ عَنْ دَارِهِ؛ أَمَرَهُمْ بِعَدَمِ الحَرْبِ وَطَلَبَ مِنْهُم لُزُومَ

بُيُوتهم، وَاشْتَدَّ الحصارُ عَلَيه، وَمَنَعَ عَنْهُ المُتآمِرُونَ الزِّيارَةَ وَحَرمُوهُ وَأَهْلَ بَيْته منَ الطَّعَام وَالشَّرَاب، وَكَان «عَلِيٌّ» – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يُزَاحمُهُم حَتَّى تَقَعَ عمَامَتُهُ لِيُوَصِّلَ المَاءَ إلَيه وَإلَى أَهْله، ثُمَّ جَاءَهُ «زَيدُ بْنُ ثَابت» قَائلاً: هَذه الأَنْصَارُ كُلُّهَا بالبَاب، إنْ شئْتَ نَكُونُ أَنْصَارَ اللَّه مَرَّتَين. فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَّا قتَالٌ فَلا».

وَأَرْسَل «عَلِيٌّ» إلَيه: «إنَّ مَعِي خَمْسَمائَة دَارِعٍ (فَارِسٍ) فَأْذَنْ لِي فَأَمْنَعَكَ منَ القَوم، فَإنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا يُستَحَلُّ بِه دَمُكَ». فَأَجَابَهُ «عُثْمَانُ»: «جُزيتَ خَيْرًا، مَا أُحبُّ أَنْ يُهْرَاقَ دَمٌ فِي سَبيلِي».

وَأَلَحَّ عَلَيه الصَّحَابَةُ بَعْدَ أَنْ تَجَمَّعَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ وَأَبْنَاؤهم أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي جِهَاد المُتَآمِرِينَ، فَقَالَ– رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– : «أَعْزِمُ (أُقْسِمُ) عَلَى مَنْ كَانَتْ لِي عَلَيه طَاعَةٌ أَلا يُقَاتِلَ».

وَضَرب «عُثْمَانُ» – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– المَثَلَ الأَعْلَى فِي تَضْحِيَته بنَفْسه فِدَاءً للأُمَّة الإسْلامِيَّة، وَمِنْ أَجْلِ حَقْنِ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ وَكِبَارِ الصَّحَابَة؛ وَلِحِفْظِ كِيَانِ الأُمَّة وَعَدَمِ تَفَرُّقِهَا.

وَيَطُلُّ «عُثْمَانُ» يَومًا مِنْ دَارِه عَلَى المُحَاصِرِينَ يَخْطُبُهُم وَيُذَكِّرُهُم بمَوَاقِفِه وَيَقُولُ:

«أُنْشِدُكُم باللَّه وَالإسْلامِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ عَلَى جَبَلِ أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَا فَتَحَرَّكَ الجَبَلُ حَتَّى تَسَاقَطَتْ حِجَارَتُهُ بالحَضِيضِ.. فَقَالَ ﷺ :«اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيكَ إلا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ» قَالوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، شَهِدُوا لِي وَرَبِّ الكَعْبَة أَنِّي شَهِيدٌ».

وَيُخْبِرُ «عُثْمَانُ» مَنْ حَوْلَهُ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوم وَرَأَى «أَبَابَكْرٍ» وَ«عُمَرَ» وَأَنَّهُم قَالُوا لَهُ: «اصْبِرْ فَإِنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنَا القَابِلَةَ» ، وَكَانَ «عُثْمَانُ» – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– صائمًا فَتْرَةَ حِصَارِه، ثُمَّ دَعَا –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بِمُصْحَفٍ فَفَتَحَهُ وَأَخَذَ يَقْرَأُ فِيه.

وَيَتَسَلَّقُ المُتَآمِرُونَ سُورَ الدَّارِ، وَيَتَكَاثَرُونَ عَلَى «عُثْمَانَ»، وَتُحَاوِلُ زَوْجُهُ الدِّفَاعَ عَنْهُ فَتُقْطَعُ أَصَابِعُهَا، وَيَضْرِبُونَهُ بِسُيُوفِهِم وَهُوَ يَقُولُ: «بِسْمِ اللّه، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه، سُبْحَانَ اللَّه».

وَتَتَسَاقَطُ قَطَرَاتُ دَمِهِ الشَّرِيفِ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وَفِي اليَومِ الثَّالِثِ لاسْتِشْهَادِهِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– حَمَلَهُ المُسْلِمُونَ بَعْدَ صَلاةِ المَغْرِبِ لِيُدْفَنَ بِالبَقِيعِ وَقَدْ نَاهَزَ الثَّمَانِينَ عَامًا مِنْ عُمْرِهِ.